أخلاقيات العلم
وأزمة الحضارة الحديثة

الأستاذ الدكتور
عبد الفتاح عبد الله بركة
الأستاذ بقسم العقيدة ومقارنة
الأديان

أخلاقيات العلم وأزمة الحضارة الحديثة

الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة

« بسم الله الرحمــن الرحيم . اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » العلق ١ /٥ .

هذه الآيات الكريمة التي كانت أول ما نزل من القرآن ، تحمل فيما تحمل من المعاني ، ذلك المعنى العميق الذي تخص به العلم ، والذي نريد أن نتحدث فيه .

ولسنا نريد أن نشير إلى كل ما يمكن استخراجه في هذا المجال ، بل نريد أن نشير إلى ما يهمنا في هذا البحث من أن الإسلام كرسالة إلهية ، ودين رباني ، يؤكد منذ البداية أن العلم نعمة من النعم العظمى التي يمتن الله بها على عباده ، فينسبه إلى نفسه جل شأنه ، فهو الذي علم بالقلم ، وهو الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو بهذا يجعل العلم حكماً وفيصلاً ، وهادياً ومرشداً ، ودليلاً وقائداً ، وصلة وثيقة بين العبد وربه ، وهو كذلك يخط للعلم إطاره ، ويحدد له مبدأه ، ويبين له غايته .

المقصود بكلمة « العلم » :

وقبل أن نسترسل في البحث ينبغي أن نبين المقصود بهذه الكلمة حتى لا يختلط الأمر على قارئه ، لأن هذه اللفظة العربية تستعمل بمعنى عام ، يشمل المعنى الذي تعنيه الحضارة المادية الحديثة وتزيد عليه .

وكما يختلف مصطلح « الدين » بمعناه العربي الإسلامي عن المصطلح المقابل له في اللغات الغربية ، كذلك يختلف معنى كلمة « العلم » عندنا عما يقابلها من كلمات في هذه اللغات .

لقد درجت هذه اللغات على استعمال هاتين الكلمتين بطريقة تفصل بينهما ، وتحدد لكل ميدانه الذي يلزمه ، ولا يسمح له أن يتجاوزه أو يتعداه ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى تصور مفهوم الدين عندهم ، وإلى عوامل كثيرة ذات جذور تاريخية ، ساعدت على أن يضعوا العلم في مواجهة الدين ، أو في مقابل الدين ، وأن يسلبوا الدين — بطريقة ضمنية غير مباشرة — أساسه العلمي ، وأن يسلبوا العلم كذلك وجهه وقلبه الديني . وهذا المفهوم عندهم لا ينطبق على الإسلام كدين ، ولا يترتب — بناء على ذلك — تلك الانفصالية التي رسمتها الحضارة الغربية الحديثة بين العلم والدين .

وهذا الاختلاف في المفاهيم هو الذي يجعل من الضروري أن نتحدث عن مقصودنا من كلمة العلم .

فالعلم ، كما هو في الحضارة الغربية ، قد حصر نفسه في دراسة العالم المحسوس ، الذي يخضع أو يمكن أن يخضع للتجارب والمشاهدة ، وتبع ذلك أنه أصبح لا يعتمد إلا على الواقع الذي تدركه الحواس ، وأصبح بحيث ينبذ كل ما لا يخضع للتجارب والملاحظة والمشاهدة ، وينظر إلى العقائد الغيبية باعتبارها أوهاماً ، وإلى مقتضيات العواطف البشرية المختلفة باعتبار أنها مضللة تحول بين صاحبها وبين الوصول إلى أحكام موضوعية محايدة .

وبهذا خرج العلم من إطار الدين وهيمنته وتوجيهه ، وكف يد الدين — أي دين — عن وضع مبادئه ، أو رسم حدوده ، أو تبيين أهدافه ووسائله ، وزعم أنه نال بذلك الحرية المطلقة التي لابد منها لازدهاره

وتقدمه ، ثم زعم أنه سوف يتوصل إلى معرفة الحقيقة بغير أن يقع تحت تأثير خارجي أو غيبي لا يخضع للحس والتجربة والمشاهدة .

وليس من مهمتنا — في هذا البحث — أن نظهر أنه فشل في ذلك كله ، فقد تكفلت بذلك بحوث علمية أخرى كثيرة (١) .

وإنما يهمنا أن العلم في المحيط الإسلامي لم يتعرض لمثل هذا الانحراف في الفهم والتحديد ، بل لعله تعرض للون آخر من التطرف ، في ظروف تاريخية محدودة ، ضيّق نطاقه ، فأصبح ينظر إليه على أنه ما كان يتصل بالعلوم الدينية مباشرة ، من عقائد وتفسير وحديث وفقه ، وما يدور حولها من علوم ، لكن هذه النظرة الضيقة المتطرفة لم تسد في المجتمع الإسلامي إلا في فترات الجمود والانكماش ، لمقتضيات وأسباب مختلفة .

ومع ذلك فالعلم في الإسلام ليس هو ذلك العلم الذي يدرس مسائل الدين وحده ، وليس هو العلم المادي وحده ، بل هو أعم من كل منهما ، لذلك كانت وسائل تحصيله أعم من تلك الوسائل التي اعتمد عليها الآخرون ، من ملاحظة وتجربة واستنباط ، يقول صاحب العقائد النسفية : إن أسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل ، ويبين شارحه معنى العلم بأنه صفة يتجلى بها كل ما يمكن ذكره والتعبير عنه . ثم يقول : إنه ينبغي أن يحمل التجلي على الانكشاف التام الذي لا يشمل الظن ، لأن العلم عندهم مقابل الظن (٢) ، فنحن هنا أمام مجال فسيح للعلم ، وأمام وسائل تتناسب مع اتساع المجال الذي يرتاده العلم .

ولهذا نجد أحد علماء المسلمين يقول (٣) : العلم الذي أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات

(١) انظر في ذلك أمثال كتاب « الإنسان ذلك المجهول » تأليف ألكسيس كاريل وتعريب شفيق أسعد فريد ، وكتاب « إنسانية الإنسان » تأليف رينيه دوبو وترجمة د . نبيل صبحي الطويل .

(٢) سعد الدين التفتازاني : شرح العقائد النفسية ص ٩٩ — ١٠٨ .

(٣) عباس العقاد : التفكير فريضة إسلامية ص ٨٥ — ٨٦ .

والأرض ، وما خلق الله من شيء ، ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ، ذي حياة أو غير ذي حياة : (**أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء**) . سورة الأعراف : ١٨٥ ، ثم يقول : فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم ، فهو أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى — رحمه الله : إن مدلول تعريف العلم كما هو في المصطلح الغربي Science هو بعض ما يطلق عليه لفظ العلم عند المؤلفين الإسلاميين ، فقد جاء في حاشية البناني على السعد أن أسماء العلوم المدونة تطلق على إدراك القواعد عن دليل ، كما تطلق على معلوماتها ، وهي القواعد التي يقوم عليها الدليل ، وعلى الملكة الحاصلة من إدراك القواعد مرة بعد أُخرى ، أعني ملكة استحضارها متى أُريد .

وحقق السيد الجرجاني أن العلم في إطلاقه على الإدراك يكون حقيقة لغوية ، وفي غير ذلك إما حقيقة عرفية أو اصطلاحية ، أو مجاز مشهور(١) .

ومن الواضح أن كلمة القواعد وكلمة الدليل هنا مطلقة ، أعم من تلك التي يعتمد عليها العلم في المصطلح الغربي ، ولذلك يمكن القول بأن إطلاق العلم على المفهوم الغربي يعتبر حقيقة عرفية أو اصطلاحية على حد تعبير السيد الجرجاني(٢) .

وللإمام الغزالي في هذا المجال سبح طويل ، يقول في كتابه إحياء علوم الدين تحت عنوان « بيان العلم الذي هو فرض كفاية » : اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم : والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى : شرعية ، وغير شرعية .

---

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق ص ١٠ . ومقصود السيد الجرجاني أن العلم يطلق على المعلوم وعلى الملكة بطريقة عرفية أو اصطلاحية أو مجازية .

(٢) وذلك عند استعماله بهذا المفهوم في اللغة العربية .

وأعني بالشرعية : ما استفيد من الأنبياء — صلوات الله عليهم وسلامه — ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغـــة (١) .

ثم يتحدث عن فرض الكفاية من هذه العلوم فيقول : أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها ، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين .

فلا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات ، كالفلاحة ، والحياكة ، والسياسة (٢) .

وقد بين قبل ذلك ما هو من فروض الأعيان ، مما يلزم كل فرد من واجبات العبادات ، وفي هذا النص يتبين بجلاء أن العلم بمعناه الغربي الحديث داخل في دائرة العلوم بمعناها الإسلامي ، بل بمعناها الديني في الإسلام ، حيث تعتبر من الفروض التي يفرضها الإسلام على أتباعه ، وإن كانت على سبيل الكفاية ، بحيث تسقط المسئولية عن المسلمين إذا تكفل بها من يكفي لسد حاجة المجتمع الإسلامي إليها ، مع أنها قد ينظر إليها باعتبار أنها أمور دينوية ، وأنها لذلك بعيدة عن نطاق الدين وتوجيهه ، ولكن هذه النظرة ليست إسلامية ، حيث إن الإسلام قد جاء لينظم شئون الدنيا باعتبارها مقدمة لما يكون في الآخرة ، وباعتبار أن شخصية المسلم لا تنفصم بين ما هو أخروي وما هو دنيوي ، بل كل منهما يرتبط بالآخر على صورة تتكامل بها شخصية المسلم دون تضارب أو انفصام .

---

(١) يعني أن الحساب مما يرشد العقل إليه ، والطب مما ترشد التجربة إليه ، واللغـــة مما يرشد السماع إليه ، فليست بهذا المعنى من العلوم الشرعية التي لا تستفاد إلا من الأنبياء عليهم السلام

(٢) الجزء الأول ص ١٥ .

وإذا أمكن أن تسمى بعض العلوم بالعلوم الدينية ، وأخرى بالعلوم الدنيوية ، فما ذلك إلا باعتبار الصلة التي تربطها بالدين من كونها مباشرة أو غير مباشرة ، لا باعتبار أن بينهما انفصالاً ، أو أن لكل منهما طريقه الخاص به الذي لا يسمح للآخر بالتدخل فيه أو الاتصال به .

ومن هنا يقول الغزالي : ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين ، ولكن لا بنفسه ، بل بواسطة الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان (١) .

وإذا كانت العلوم التجريبية — في محيط الإسلام — علوماً دينية بهذا الاعتبار ، فإنها — كذلك — علوم دينية باعتبار كونها عملاً يتقرب به إلى الله تعالى « فإن كل علم عمل ، فإنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علماً ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى ، فيكون مثاباً على علمه من حيث إنه عامل الله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله ، فيكون مرضياً عند الله سبحانه ومثاباً ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل » (٢) .

مبدأ العلم وغايته :

والحقيقة أن هذه التقسيمات تقسيمات فرعية عقلية نشأت من تدقيق النظر وتعميق البحث ، ولها اعتبارها الكبير في موضعها ، ولكن النظرة المبدئية إلى العلم في الإسلام كانت تمزج بين ما هو دنيوي وما هو ديني ، بغير إشعار بالتمييز أو التفريق إلا ما كان من اعتبار العلم — مطلقاً — وسيلة إلى معرفة الله والتقرب إليه ، فما كان على هذا الأساس كان علماً إسلامياً ، بمعنى أن الإسلام يقره ويثيب عليه ، ويعتبره علماً صحيحاً مقبولاً ، وما لم يكن كذلك لم يحظ بهذه المرتبة ، وإن كان في نفسه علماً صحيحاً مطابقاً للحقيقة الواقعية ، ذلك لأنه لم تكتمل له مرحلته الأخيرة ، وهي هدايته إلى الله ، أو استعماله في سبيل الله .

(١) إحياء علوم الدين ١ / ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١ .

وشمولية العلم في الإسلام تتبدى في مثل قوله تعالى : **(وعلم آدم الأسماء كلها)** . سورة البقرة : ٣١ ، وقوله تعالى : **(كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)** . سورة البقرة : ١٥١ ، وقوله تعالى : **(فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون)** . سورة البقرة : ٢٣٩ ، وقوله تعالى : **(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)** . سورة النحل : ٧٨ ، وقوله تعالى : **(وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنىّ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم)** . سورة البقرة : ٢٤٧ ، وقوله تعالى : **(ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)** . سورة الحج : ٥ ، وقوله تعالى : **(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم)** . سورة غافر : ٨٣ .

فهذه الآيات تذكر العلم بمعنى أعم من العلم الذي يتصل بالدين مباشرة ، وهناك آيات كثيرة مثلها ، وأخرى يمكن لمن يريد أن يقصرها على العلوم المتصلة بالدين مباشرة فلم نذكرها ، وإن كنا نفضل أن ننظر إليها في ضوء مثل هذه الآيات العامة ، إلا ما يدل السياق على تخصيصه .

وهناك من الآيات ما يشير إلى أنواع معينة من العلم ، خاصة تلك العلوم التجريبية ، مثل قوله تعالى : **(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)** . سورة يونس : ٥ ، وقوله تعالى : **(وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون)** . الأنبياء : ٨٠ وقوله تعالى : **(يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء)** . سورة النمل : ١٦ ، ولآيات أخرى غيرها .

والآيات التي تحض على العلم بمختلف فنونه وألوانه ، أو بقسميه

الشرعي وغير الشرعي على حد تقسيم الإمام الغزالي كثيرة مشهورة ، خاصة تلك التي تحض على الروية وعلى النظر ، ولا نطيل البحث بذكرها (١) .

لكننا عند مراجعتنا لمثل هذه النصوص القرآنية وما شابهها من الأحاديث النبوية نستطيع أن نتبين أن العلم الذي يتحدث عنه الإسلام يصدر عن مبدأ أساسي هو الدين ، أو هو التوحيد ، أو هو الله جل وعلا ، وأن بناءه على هذا الأساس هو الذي يضمن له استقامته ، وسلامة قواعده ومبادئه ، وأنه إذا ابتعد عن هذا الأساس انحرف في اتجاهه ، وأسلم إلى قواعد قد تكون صحيحة في ظاهرها ، لكن هذا الخلل المبدئي في أساسها يجعل باطن هذه القواعد غير مستقيم ، فهذه النصوص حينما تشير إلى آيات الله في الخلق بكل صوره وأشكاله وأنواعه تشير إليها في محيط كونها من خلق الله وحده لا شريك له ، وإلى كونها على أحسن صنع ، وأتم خلق ، وإلى كونها على أحكم تقدير ، وأدق تدبير **(وكل شيء عنده بمقدار)** . سورة الرعد : ٨ ، **(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)** . سورة الحجر : ١٩ — ٢١ ، **(وخلق كل شيء فقدره تقديرا)** . سورة الفرقان : ٢ ، **(يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه)** . سورة السجدة : ٥ — ٧ . **(الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى)** . سورة الأعلى : ٣ — ٤ ، **(وصوركم فأحسن صوركم)** سورة غافر : ٦٤ ، **(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)** سورة التين : ٤ ، **(ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)** سورة المؤمنون : ١٤ ، **(ما ترى في خلق**

---

(١) ويمكن مراجعة هذه الآيات كمثل لها : ٧ / ١٨٥ ، ١٣ / ٤ ، ١٦ / ٧٩ ، ٢٢ / ٦٣ ، ٢٤ / ٤٣ ، ٢٥ / ٤٥ ، ٢٧ / ٨٦ ، ٢٨ / ٧١ — ٧٢ ، ٢٩ / ١٩ — ٢٠ ٣١ / ٢٩ و ٣١ ، ٣٢ / ٢٧ ، ٣٥ / ٢٧ — ٢٨ ، ٣٦ / ٧١ ، ٥٠ / ٦ ، ٨٠ / ٢٤ ، ٨٦ / ٥ .

الرحمن من تفاوت) سورة الملك : ٣ ، **(إن ربك هو الخلاق العـــليم)** سورة الحجر : ٨٦ ، وغير ذلك من آيات كثيرة مختلفة الصيغ والأساليب .

كما تدلنا هذه الآيات ومثيلاتها إلى أن وسائل تحصيل العلم بهذه المعلومات أو هذه العلوم إنما هي هبة ومنة من الله وحده ، فالسمع والبصر والفؤاد والعقل والقلب وغيرها من آلات العلم والإدراك والمعرفة ، كلها هبة ومنة من الله وحـــده .

وأن العلم الحاصل بها إنما يرجع إلى الله وحده ، فهو الذي : **(علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم)** سورة العلق : ٤ — ٥ ، وهو الذي **(خـــلق الإنسان ، علمه البيان)** سورة الرحمن : ٣ — ٤ ، وهو **(الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)** سورة طـــه : ٥٠ .

فبداية كل علم وأساسه ينبغي أن يكون من هذه النقطة ، يستوي في ذلك أن يكون هذا العلم علماً شرعياً أو علماً غير شرعي ، ولسوف نجد أن كثيراً من العلوم الحديثة (١) قد فرط في هذا الأساس ، وأنه لذلك يتعثر في كثير من مسائله وفروعـــه .

وكما دلتنا مراجعتنا لمثل هذه النصوص على المبدأ الذي ينبغي أن يكون للعلم في نظر الإسلام ، فإن مثل هذه المراجعة سوف تدلنا على الغاية التي ينبغي للعلم أن يقصد إليها ، ولقد أشارت آيات خلق آدم عليه السلام إلى ذلك حين قـــال تعالى : **(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعـــل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قـال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلّـم آدم الأسماء كلها)** سورة البقرة : ٣٠ — ٣١ ، فالعلم لتحقيق الخلافة في الأرض ، ومعنى ذلك أن تدبيرها واستعمارها والعمل فيها لابد أن يكون لله الذي استخلف الإنسان فيها ، وأن هذا التدبير والاستعمار والعمل مبني على هذا العلم الإلهـــي ،

(١) وذلك مثل علم النفس الحديث ، وعلم الاجتماع الحديث .

الذي يستمده الإنسان من الله ، وذلك – كما عرفنا – مرتبط بمبدئه ومادته ووسيلته ، وبهذا يصبح العلم مبدأ وغاية ، ومادة ووسيلة لله رب العالمين .

ولسوف نجد أن كثيراً من العلوم الحديثة قد غفلت عن هذه الغاية – كما غفلت من قبل عن المبدأ – واستعملت العلم لتحقيق غايات أُخرى ، مقطوعة الصلة بهذه الغاية العليا ، وأنها لذلك تؤدي إلى غايات محبطة ، وتثمر في النهاية ثمراً مراً .

وينبغي أن نلاحظ أننا حين ذكرنا المبدأ والغاية قد تخطينا مباديء وغايات وسطى ، اختصاراً للبحث ، وعلماً أن هذه الوسائط من المباديء والغايات سوف تنتهي في آخر المطاف إلى هذا المبدأ الأعلى ، وهذه الغاية العليا .

إنسانية العلم في تحقيق إلهيته :

وهذه النسبة التي للعلم ، مبدءاً وغاية ، ومادة ووسيلة ، لا تسلب من العلم إنسانيته ، وإنما تحققها في أعلى مستوياتها ، وأنقى صورها .

ذلك لأنه إذا لم يستقر في أساسه على هذا المبدأ الإلهي ، فإنه لا يمكن أن يستقر على مبدأ موحد أبداً ، بل لابد أن تختلف عليه المباديء ، تبعاً لاختلاف العلماء في عقائدهم وميولهم ، وتبعا لاختلاف الثقافات والبيئات ، بل – أكثر من ذلك – تبعاً للمذاهب السياسية المتقلبة ، والتي يتحكم فيها – غالباً – هوى الحكام ، سواء كانوا في صورة فردية ، أو في صورة جماعية ، حسب نظم الحكم المختلفة ، بل ربما تتحكم فيها عواطف العالم الباحث نفسه ، فتلون بحثه وعلمه بلون خاص وصبغة خاصة ، بحسب ما يحب أو يكره ، وبحسب ما يستحسن أو يستقبح ، إلى غير ذلك من ألوان التميز .

ولعل الأمثلة في ذلك من الوضوح بحيث تثير كثيراً من العجب ، فعلم النفس – مثلاً – حين يدرس في العالم الشرقي يدرس على أساس المباديء الماركسية ، ولكنه في العالم الغربي يدرس على أساس مختلف ، وكذلك علم

الاجتماع يدرس على أساس المباديء الماركسية في العالم الشيوعي ، ويدرس على أساس مختلف في العالم الغربي ، وهما كذلك يدرسان في هذين المعسكرين على أساس مباديء تختلف عن تلك التي يعرفها العالم الإسلامي ، والذي يستمدها ، لا من فكر فلان ، ولا من هوى فلان ، ثم إن العالم النامي الذي لم يستقل بعد بعلومه ، سوف يكون له دوره في توجيه مثل هذه العلوم ، حين يتخلى عن تبعيته لهذا المعسكر أو ذاك ، وفقاً لاتجاهاته ومبادئه التي يستقر عليها ، بل إننا نشاهد في هذين العلمين من التقلبات والتغيرات ما يتبع مزاج العلماء في كثير من الأحيان ، وإن كان ذلك لا يجردهما كلية من حقــائق علمية ثابتة .

ولسوف نجد كثيراً من النظريات التي نسبت إلى العلم ، وهي في الحقيقة نظريات عرقية وعنصرية ، تستخدم العلم لفرض طاغوتها وجبروتها ، وتحقيق أهدافها وفقاً لمباديء سياسية أو مطامع إقليمية .

ولا يصح أن يقال إن العلوم المادية التي تخضع للتجربة والملاحظة و تكرار المشاهدة بعينها كلما تكررت التجربة لا يقع فيها مثل هذا الخلط والالتباس ، بل قد يقع فيها مثل ذلك ، وكم ظهرت أمور تبين منها كيف زيف بعض العلماء بعض الإحصاءات والتقريرات ، وما ترتب عليها من نتائج ، توصلاً إلى ترسيخ فكرة معينة أو مبدأ معين ، وتبعها كثير من الشعوب والأمم ، ثقة بالعلم والعلماء ، حتى ظهر زيفها ، أو ظهر – على الأقل – عدم اعتمادها على أساس صحيح ، وذلك مثل النظرية الداروينية (١) ، والنظرية الفرويدية (٢) ، وكالنظريات التي يريدون اليوم إشاعتها بين البلاد النامية ، والمسلمين خاصة ، عن تكاثر السكان وصلته بوقوع كارثة إنسانية ، بناء على قصور الموارد (٣) .

(١) الخاصة بالتطور والانتخاب الطبيعي .

(٢) الخاصة باستئثار العزيزة الجنسية بمعظم التأثير في اللاشعور .

(٣) وأصحاب الدعوة إلى هذه النظرية لا يطبقونها على أنفسهم ، كأن المباديء العلمية العامة تختلف – عند التطبيق – باختلاف الأديان واختلاف الأجناس .

واختلاف المباديء الذي يؤثر في اختلاف العلوم واضطرابها لا يساعد على أن تصبح هذه العلوم عاملاً على جمع الإنسانية وتأليفها ، والارتفاع بمستواها إلى أُفق الكرامة التي هيأها لها الخالق جل وعلا ، ومن هنا كانت إلهية المباديء التي تنبني عليها العلوم عاملاً مهماً في أن تكون هذه العلوم علوماً إنسانية ، بمعنى أن تكون عامل أُلفة ومودة وسلام بين بني البشر .

وكما يقال بالنسبة للمباديء يقال مثله وأكثر منه بالنسبة للغايات ، خاصة تلك الغايات العليا ، التي تتجاوز تلك الغايات الوسيطة ، فالاختلاف في الغايات الوسطى لا ضير فيه ، ولا ضرر منه ، مادام محكوماً في النهاية بغاية عليا ، وإذا كانت الغاية العليا — التي تحكم هذه الغايات الفرعية — غاية إلهية كما حدها الله ورسمها لنا ، فإن كل الغايات الوسطى سوف تتعاون وتتكامل ليصبح المجتمع الإنساني موحد الهدف ، موحد المشاعر ، مترابط الأفكار والعواطف ، مع تنوع نواحي النشاط ، وتشعب سبل العمل ، وازدهار عوامل التقدم والرقي ، دون أن يجد هذا التنوع في النشاط وميادين العمل ووسائل الازدهار تعارضاً أو تناقضاً ، ودون أن يبذر بذور الشقاق والخلاف والعداوة ، ودون أن يثير عوامل الأنانية والأثرة ، والتعالي والاستكبار ، ذلك لأن الغاية الأخيرة ، أو الغاية العليا تقوم بالتنسيق والتأليف بين مختلف الغايات الفرعية ، أو الغايات المحلية والإقليمية والعرقية .

أما إذا اختلفت تلك الغاية العليا ، أو اختفت وراء زحام الغايات المحدودة ، فمن المتوقع أن تصبح الغايات مختلفة باختلاف القبائل والشعوب والأُمم ، وأن تختلف تلك الغايات في الشعب الواحد بين أفراده ، وأن يعقد هذا الاختلاف في الغايات اختلافاً في وسائل تحقيقها وتحصيلها والوصول إليها ، وأن يقع في المجتمع الإنساني من التعارض والاختلاف بقدر ما بين هذه الغايات المحدودة من التعارض والاختلاف ، وأن تتدخل عوامل الأنانية والأثرة الفردية والعرقية لتثير نيران العداوة والبغضاء ، خاصة إذا تدخلت الأهواء الشخصية ، والنعرات السياسية ، لتحدد أهدافاً

وغايات لا تراعى فيها غير نطاق محدود ، وإطار ضيق يمليه ضيق أُفـق الإنسان من حيث هو إنسان ، وقصر نظره الذي تمليه حدود الزمان وحدود المكان ، وحدود الذاتية القاصرة التي تتعالى وتستكبر في الأرض بغير الحق .

ولو قلبنا النظر في معظم ما ينتجه العلم اليوم لوجدنا حظ الفكر والروح فيه قليلاً ، ولوجدنا للناحية المادية فيه حظاً جزيلا .

فإذا أردنا أن نلقي نظرة على تلك العلوم التي تهتم بالجانب الفكري والروحي وجدنا أنها متأثرة كل التأثر بتلك الغايات المحدودة المختلفة ، ولا شك أن القاريء يوافقني على أن الإسلام ، كدين له جوانبه الفكرية والروحية العميقة ، قد عانى ومازال يعاني من تلك البحوث الغربية التي خطط لها في ضوء أفكار وغايات استعمارية وصليبية وصهيونية وإلحادية عاتية ، وأن صورته لازالت تعاني من التشويه والتزييف ، حتى بين أبنائه وشعوبه الذين ورثوا الإسلام كابرا عن كابر .

وإذا انتقلنا إلى العلوم المادية ، وهي فيما يظن بعيدة عن التأثر بمثل هذا الاختلاف في الغايات ، وجدنا أنها لا تخلو من مثل هذا التأثر ، إما بطريقة مباشرة ، وإما بطريقة غير مباشرة ، بطريقة مباشرة كما إذا أريد تصدير معلومات زائفة إلى الآخرين ، بغية الاحتفاظ والاستئثار بعناصر التفوق والغلبة المادية ، ويشمل ذلك كثيراً من فروع العلم ، حتى في مجالات الصحة البدنية والنفسية ، لا في مجال استخدامات الأسلحة الحربية ، وبطريقة غير مباشرة ، كما يحدث بعد البحوث التجريبية نفسها في أثناء عمليات التحليل أو التركيب ، وخاصة في الناحية التطبيقية ، ومحاولة فرض نتائج ، قد تصلح لغرض محدود ، على شعوب وأُمم ليس لهم في هذا الفرض مصلحة ، وإنما يقعون فيه فريسة لتحقيق أغراض شعوب أُخرى ، اقتصادية أو عسكرية أو سياسية .

وليس أقل من أن العلم يتقدم في هذه المسائل العرضية المادية ، ويهمل إهمالاً يكاد يكون تاماً جوهر الإنسانية في الإنسان ، ولذلك ينهمك في

كثير من التفريعات والتقسيمات التي توغل بالعلم في المادية الخالصة ، وتجعله يغفل عن الهيكل الكلي ، الذي يجمع في إطاره كل هذه التفريعات والتقسيمات ، فيغطي الشخصية والملامح الإنسانية السامية .

ولقد انحرفت العلوم المادية ، بناء على هبوط مستوى الغايات التي تهدف إليها ، لكي تصبح وسيلة من وسائل الدمار ، في الوقت الذي تعمل فيه لتكون وسيلة من وسائل البناء والإعمار ، وأصبحت هذه مشكلة المشاكل في الحضارة الغربية الراهنة ، التي تعمل من أجل رفاهية الإنسانية وتقدمها ، وهي بهذا العمل عينه تتبنى عوامل هدمه وتحطيمه وإبادته ، نظراً لتلك الغايات الأنانية ، واستعمال العلم المادي لتحطيم معنويات الآخرين سلاح يمكن أن يرتد ، لأن شقاء الإنسانية في جانب من العالم لا يمكن أن يظل بمعزل عن التأثير ، حتى فيمن كان يعمل عليه ويجتهد فيه .

ولسنا نريد أن نتعرض إلى مدى الثقة التي يستحقها العلم المادي التجريبي والتي يصح أن تخول لنا هجران علوم الفكر والروح مثل هذا الهجران ، فإنه يكفينا منه أنه يعترف بأنه علم تقريري وصفي ، يعتمد على الظواهر دون حقائق الأمور وكنهها ، وأنه لذلك نسبي غير مطلق ولا أبدي ، وأن علينا أن نستفيد منه على ما هو عليه ، لأن هذا هو ما يدخل في وسعنا وطاقتنا ، لكنه إذا أُضيف إلى ذلك وضعه في خدمة هذه الأغراض والغايات المحدودة ، كانت نتائجه ، من حيث حقائقه التي يتوصل إليها ، أو تطبيقاته التي يستخدم فيها ، مفيدة لأصحابها في تحقيق أغراضهم وغاياتهم ، ولكنها ضارة بالإنسانية في مجموعها ، محطمة لحضارة الإنسان ومدنيته في حصيلة هذا النشاط العلمي الواسع .

ويخرج الإنسان من مأزق هذا التناقض بين بناء الحضارة بالعلم ، وهدمها بالعلم ، أن تتناسق كل هذه الغايات في إطار الغاية العليا ، وهذه الغاية العليا هي ما حدده الله للإنسان على هذه الأرض ، بهذا وحده يمكن أن تتحقق للعلم إنسانيته ، وإلا توزعتهم الغايات المختلفة والأهداف المتضاربة .

العلم عبادة :

بهذا الاعتبار يكون العلم - بكافة فروعه ، شرعية وغير شرعية - علماً دينياً ويكون طلبه وتعلمه وتعليمه عبادة من العبادات ، بل يكون عبادة من أكثر العبادات قدراً عند الله ، فإذا تجرد من هذا الاعتبار فقد أصبح علماً دنيوياً ، حتّى لو كان من العلوم الشرعية .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي :

إن علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجلية حقائقه ، غاية ما هنالك أن علوم الطبيعة تحتاج دراسات أطول ، أما العلم بالدين فميسور لمن أخلص له أياماً معدودات .

وإذا كان التوسع في فروع الشريعة يحتاج مدداً فسيحة ، فهذا التوسع وظيفة اجتماعية ، كسائر الوظائف التي تستكثر منها الدولة أو تستقل ، وفق المصلحة التي تنجح رسالتها العليا .

وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف في ذاتها من دراسة الطب مثلاً ، ولو بلغ صاحبها مبلغ أبي حنيفة ، وإنما يرجح الرجل صاحبه في علمه بمقدار ما يسخر هذا العلم لنفع الناس ابتغاء وجه الله ، وانتظار ما لديه من مثوبة .

إن الحاجز بين ما هو دين محض ودنيا محضة يرق ويكثف بحسب النية ، وسلامة القصد ، ونبل الغاية (١) .

فهو بهذا الاعتبار عبادة ، وهو من حيث هو مأمور به من قبل الله تعالى عبادة ، وهو بهذه الاعتبارات كلها من أفضل العبادات ، وفي حديث الترمذي عن كثير بن قيس قال : قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق ، فقال : ما أقدمك يا أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى ال عليه وسلم ، قال : أما جئت لحاجة ؟ قال : لا .

(١) خلق المسلم ص ٢٢٤ .

قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : ما جئت إلا في طلب هذا الحديث ؛ قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقـــول :

« من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتّى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر(١)

وتوجد أحاديث كثيرة أُخرى في فضل عبادة العلم ، ويكفي ما نوه القرآن الكريم به من فضل العلماء ، في مثل قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأُولوا العلم قائمـــاً بالقسط** ﴾ . سورة آل عمران : ١٨ ، وقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ . سورة الزمر : ٩ ، وقوله تعالى : ﴿ **إنمـــا يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ . سورة فاطر : ٢٨ .

أخلاق العلم تستمد من هذه الاعتبارات :

في إطار هذه الاعتبارات تكونت أخلاقيات العلم في الإسلام ، وكان لهذه الأخلاقيات من التقدير والاحترام والتمسك والالتزام عند علماء المسلمين ، ما كان عندهم لأصولها من هذه الاعتبارات .

ولسنا نريد أن نسترسل في بيان هذه الأخلاق في جانب المعلم والمتعلم ، وهناك كتب متعددة من التراث الإسلامي تعتني بهذه الناحية ، وتعتبر من كتب التربية الإسلامية ، ولكننا نريد أن نتحدث عن الأخلاق العامة التي لابد منها حتّى تتحقق للعلم إنسانيته .

وإذا كانت هذه الأخلاق التي سنتحدث عنها مستوحاة من هذه الاعتبارات السالفة ، وهي ذات صبغة إسلامية خالصة ، فإنها تصلح — في

(١) وتروى فقرات من هذا الحديث في روايات أخرى متعددة ، وبصيغ متقاربة .

حد ذاتها ، وبصرف النظر عن هذا الإطار — لكي تكون دستوراً للعلم والعلماء ، ولكي تنقذ العلم المادي الحديث من هذا المأزق الحضاري ، الذي يبنى فيه بيد ، ثم يهدم باليد الأخرى أكثر مما بناه ، ذلك أنه يبنى من جانب المادة ما يساعد في وجهه الآخر على هدم الناحية الإنسانية في الإنسان ، مع أنه يعلن صباح مساء أنه يقوم باكتشافاته وإبداعاته لخدمة الإنسان .

وأول هذه القواعد الأخلاقية : الحرية

وليست الحرية المقصودة هنا أن توجد بحيث يمكن لك أن تختار ، وإنما بحيث تمارس في نفسك وفكرك وعملك هذا الاختيار ، فتكون الحرية مسألة ذاتية وجدانية ، أكثر من أن تكون مسألة بيئية خارجية ، فوجود الفضاء حولك لا يعني أنك قادر على أن تتحرك فيه ، ولكن حركتك هي التي تدل على قدرتك واستفادتك من وجود هذا الفضاء .

وحريتك التي تنبع من ذاتك فتسيطر على ميادين نشاطك ، بما في ذلك ميدان العلم ، يجعلك تحترم حرية الآخرين ، وبذلك يصبح البحث والعلم حراً ، لا التزام فيه لشيء إلا ما يمليه على العالم وجدانه وفكره وعلمه .

ولقد كان ذلك من أول ما نادى به الإسلام ، حيث طلب من الناس أن يتحرروا من ربقة التقاليد والاعتقادات والفرضيات التي لا تستند إلى عقل أو إلى حقيقة أو إلى واقع ، ونعي على المقلدين والكسالى الذين لا يرون أن يمارسوا حريتهم باستعمال عقولهم وضمائرهم ، وباستعمال آلات البحث والعلم التي وهبها الله لهم ، وباستعمال المواد التي خلقها الله لهم لينظروا ويبحثوا ويدرسوا .

يقول سبحانه وتعالى : **(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)** . سورة البقرة : ١٧٠ ، ويقول : **(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع**

ما وجدنا عليه آباءنا أوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) سورة لقمان : ٢١ ، ويقول : **(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)** . سورة المائدة : ١٠٤ ، ويقول : **(وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون)** . سورة الزخرف : ٢٣ .

فالعصبية الجاهلية للجنس واللون ، والمواريث الفكرية والحضارية التي لا تستند إلى علم صحيح ، من المعوقات التي تنحرف بالعلم وتضلل أهله ، والتي ينبغي أن يتحرر العلم والعلماء منها في كل فروع العلم ومسائله عامة ، وفي الأصول الأساسية التي تمس صميم حياة الإنسان من حيث هو إنسان — خاصة .

ولذلك يهيب القرآن بالإنسان أن يستعمل حريته هذه بنفسه فيما يتيسر له من شئون العلم ، وينادى به أن ينظر في كل شيء يمكن أن ينظر فيه ، لا أن يقف جامداً بليداً مكتفياً بما تيسر له : **(أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء)** . سورة الأعراف : ١٨٥ ، **(قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)** . سورة يونس : ١٠١ ، ثم يشير إلى أشياء محددة بعينها كما في قوله تعالى : **(أوَلَمْ ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون)** . سورة الأنبياء : ٣٠ — ٣٣ . وقوله تعالى : **(ألم يروا إلى الطير مسخرات في جوّ السماء)** . سورة النحل : ٧٩ ، **(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن)** . سورة الملك : ١٩ ، وقوله تعالى : **(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)** . سورة العنكبوت : ٢٠ ، وقوله : **(فلينظر**

الإنسان إلى طعامه) . سورة عبس : ٢٤ ، وقوله : **(فلينظر الإنسان مم خلق)** . سورة الطارق : ٥ ، وقوله : **(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت)** . سورة الغاشية : ١٧ ، والآيات في هذا المجال كثيرة متنوعة ، والمقصود بذكر هذه الأمثلة هو بيان أن الإسلام يريد أن يحرر الإنسان لا من التقاليد حوله فحسب ، بل من نفسه ، بحيث يستعمل هذه الحرية في البحث والنظر ، وتحصيل العلم بصورة مطلقة لا قيد عليها من خارج نفسه ولا من داخلها .

القاعدة الثانية : ابتغاء الحق والابتعاد عن الظن :

فاتباع الحق ، والنظر إليه وحده ، والعمل من أجل التوصل إليه ، هو الذي يقود البحث العلمي في طريقه المستقيم ، ويقيه مزالق الانحراف ، ومهاوي الضلال ، أما النظر إلى الحق مرة ، والغفلة عنه أُخرى ، أو العمل بغير نظر إلى الحق مطلقاً ، فإن ذلك لابد أن يؤدي إلى اضطراب النتائج العلمية ، أو اتخاذها مسلكاً لا يتفق مع الفطرة الإنسانية ، ويسوقها في النهاية إلى الوقوع في حمأة الباطل ، أو التردي في متاهة الضلال .

كما أن الاكتفاء بنصف الطريق ، والاعتماد على الفروض والتخمينات والظنون وحدها ، بغير تحقيقها والوصول إلى غاية الحق فيها ، يؤدي إلى النتائج السيئة التي أشرنا إليها .

ولقد بين لنا الإسلام أن كل شيء في ملك الله سبحانه وتعالى قائم بالحق ، وأننا لكي نتعرف إلى ملك الله ، أو إلى أي شيء فيه ، لابد لنا أن نعتمد فيه على الحق وحده ، وأن اتباعنا للحق في أي شيء ندرسه سوف يقودنا إلى الحق المبين ، وهو الله سبحانه وتعالى ، كما يقول جل شأنه : **(ويعلمون أن الله هو الحق المبين)** . سورة النور : ٢٥ .

أما أن كل شيء في ملك الله سبحانه وتعالى قائم بالحق ، فقد أعلنه الله في مثل قوله : **(وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق)** . سورة

الأنعام : ٧٣ ، وقوله : **(ما خلق الله ذلك إلا بالحق)** . سورة يونس : ٥ ، **(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)** . سورة الحجر : ٨٥ .

وأنه سبحانه ما أرسل رسله ، ولا أنزل كتبه ، ولا شرع شرائعه إلا بالحق ، **(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق)** . سورة النساء : ١٠٥ ، **(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق)** . سورة البقرة : ٢١٣ .

ولذلك كان الأمر بالتزام الحق في كل الأُمور ، والأمر بعدم اتباع الظن أو الإعراض عن دلائل الحق ، أو التقول بالباطل فيما اتضح فيه وجه الحق **(ليحق الحق ويبطل الباطل)** . سورة الأنفال : ٨ .

أما التزام الحق واتباعه ففي مثل قوله تعالى : **(فاحكم بين الناس بالحق)** سورة ص : ٢٦ ، وقوله : **(والله لا يستحيي من الحق)** . سورة الأحزاب : ٥٣ ، وقوله : **(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)** . سورة العصر : ٣ .

وأما عدم اتباع الظن ففي مثل قوله تعالى : **(إن الظن لا يغني من الحق شيئا)** . سورة يونس : ٣٦ ، وقوله : **(إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون)** . سورة الأنعام : ١١٦ ، وقوله : **(إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين)** . الجاثية : ٣٢ ، وقوله : **(وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون)** . سورة الجاثية : ٢٤ ، وقوله : **(وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا)** . سورة النجم : ٢٨ .

وأما عدم الإعراض عن دلائل الحق ففي مثل قوله تعالى : **(بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)** . الأنبياء : ٢٤ ، وقوله : **(لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون)** . سورة الزخرف : ٧٨ ، وقوله : **(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق)** . سورة الأعراف : ١٤٦ .

وأما عدم التقول بالباطل ففي مثل قوله تعالى : **(ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق)** . سورة المائدة : ١١٦ ، وقوله : **(ولا تقولوا على الله إلا الحق)** . سورة النساء : ١٧١ ، وقوله : **(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق)** . سورة الأعراف : ١٦٩ .

وبعد ذلك كله : **(فماذا بعد الحق إلا الضلال)** . سورة يونس : ٣٢ .

القاعدة الثالثة : التجرد عن الهوى

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) سورة المؤمنون : ٧١ ، ذلك لأن الهوى يختلف من فرد إلى فرد ، ومن شعب إلى شعب ، بل يختلف باختلاف المزاج ، وهو قلب لا استقرار له ولا ثبات ، وعندما يتدخل في المسائل العلمية فإنه يوجهها بما يتفق مع اتجاهاته المتقلبة ، فلا يثبت علم ، ولا يستقر حق .

والهوى يتبع الحب والكراهية ، والرضا والغضب ، والحاجة إلى الآخرين والتعالي عليهم ، والرغبة في أعراض هذه الحياة الدنيا من ثروة أو جاه أو نفوذ أو شهرة أو غير ذلك ، ومن الممكن تسخير العلم لتحصيل شيء من ذلك ، ولإشباع بعض هذه العواطف أو هذه الميول ، لكنها عندئذ تكون قد انحرفت عن القاعدة السابقة ، وهي ابتغاء الحق وحده بصرف النظر عن الرغبات الخاصة ، الفردية أو القومية ، فإذا اتبع العلم الهوى ، كان إفساده أكثر من إصلاحه ، وكان تخريبه وتدميره أكبر من بنيانه وتعميره ، ولذلك كان النهي عن اتباعه في كل الأمور لازماً ، وفي ميدان العلم على وجه الخصوص أكثر لزوماً .

وكثيراً ما وضع العلماء الفروض ، وسخروا الأداة العلمية لتحقيقها ، والتوصل إليها ، لأنها تتفق مع ميولهم ، وتنسجم مع أهوائهم ، فلما ذهب سلطانهم ، وتغيرت دولة نفوذهم ، وخلفهم على البحث آخرون ، أظهروا زيف ما حققوه ، وهدموا ما كانوا قد بنوه ، ووضعوا فرضاً جديداً ،

وتحقيقاً جديداً ، وفي ذلك من تعويق التقدم العلمي ما فيه ، فوق ما فيه من تضليل وتزييف لا يليق (١) .

لذلك كان نهي الإسلام عن اتباع الهوى في مثل قوله تعالى : (**فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا**) . سورة النساء : ١٣٥ ، وقوله : (**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**) . سورة ص : ٢٦ ، وقوله : (**و من أضل ممن اتبع هوه بغير هدى من الله**) . سورة القصص : ٥٠ وقوله : (**وإن كثيراً ليُضلون بأهوائهم بغير علم**) . سورة الأنعام : ١١٩ ، وقوله : (**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم**) . سورة الروم : ٢٩ ، وقوله : (**أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**) . سورة محمد : ١٤ .

ومن مثل هذه الآيات يتبين لنا أن الإسلام يعتبر أن الهوى آفة العلم ، وأن ما يأتي عن طريق الهوى لا يكون علماً صحيحاً ولا مقبولا ، وأنه لذلك يجب أن نرفض كل ما يأتي به الهوى ، سواء كان هوى شخصياً ، أو كان هوى الجماعة المحيطة : (**ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**) . سورة الجاثية : ١٨ ، (**ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل**) . سورة المائدة : ٧٧ .

واتباع الهوى في العلم يثير العداوات ، ويشعل نيران البغضاء ، لتعارض الأهواء واختلافها فوق ما فيه من تزييف العلم وتضليل العقول .

القاعدة الرابعة : الأمانة وتكامل المنهج

وليست الأمانة قاصرة على نسبة الأفكار والعلوم لأصحابها فحسب ، ولكنها تشمل عمل العالم في نفسه ، وفي بحثه وحكمه ، وفي تجربته واستنباطه ، ذلك لأن الناس تعتمد على العلماء في ميدان علمهم ، فيأخذون أحكامهم

(١) وكثير من الباحثين الغربيين في الإسلاميات يفعلون ذلك ، فيضعون نصب أعينهم فروضاً معينة تتفق مع أهوائهم في هدم الإسلام ونقض قواعده ، ثم يتصيدون من الأسانيد والشواهد ما يحاولون تحريفه أو توجيهه بحيث يؤدي إلى النتائج التي سبق لهم فرضها .

واستنتاجاتهم مأخذ الثقة والتقدير ، ثم يبنون عليها آراءهم الشخصية ، وتصرفاتهم الخاصة والعامة ، في شئون فكرهم وثقافتهم ، وصحتهم وتجارتهم ، وبنائهم ، وحلهم وترحالهم ، وغير ذلك من شئون الحياة ، وذلك يضع على كاهل العلماء مسئولية الأمانة في أن يتحروا في بحوثهم ، وفيما يقدمونه للناس من نتائج هذه البحوث ، الدقة والصحة من جانب ، وما يفيد الناس ويجلب إليهم النفع الخالص ، أو بأقل ضرر ممكن ، بحيث ترجح المنفعة على المضرة ، وبحيث لا يهدم في الإنسان إنسانيته ، ولا يفسد علاقاته أو أخلاقه ، وبحيث لا يضلله ولا يخدعه ، ولا يلبس عليه الحق بالباطل ، وبحيث لا يطلق له حبل الأماني الكاذبة ، والأحلام التي تعطل عقله وفكره ، وتزيف عاطفته ووجدانه ، وتتلاعب بأهوائه وخيالاته ، وتثير فيه أدنى الغرائز وأعتاها .

ولذلك كان المنهج المادي البحت منهجاً أعرج ، لأنه يتجاهل الجوانب الأخرى في الإنسان ، ذلك لأن قوانين المادة قابلة للتطبيق في مجال المادة الجامدة فقط ، أما تطبيقها على الإنسان ، فلا يمكن أن يكون تطبيقاً كاملاً ، لأنه ليس مادة خالصة ، كما أن مادته ليست جامدة ، وليست منفصلة عن بقية مكوناته كإنسان حتى يمكن الاقتصار عليها عند التطبيقات المادية .

ومن الأمانة ــ إذن ــ أن يعطي لكل ذي حق حقه ، فيعطي للمادة حقها من المنهج المناسب لها ، ويعطي للإنسان حقه من المنهج المناسب له ، وعندئذ يتكامل المنهج الذي يحقق للإنسان إنسانيته في إطار المبدأ والغاية السليمة .

ولذلك نجد القرآن ومنهج الإسلام التشريعي والأخلاقي في إطار العقيدة العليا ، يشتمل على المنهج المتكامل ، ويخاطب الإنسان بهذا المنهج ، ويرشده إليه في كل أموره ، دنيوية أو أخروية ، فردية أو اجتماعية ، علمية أو فنية ، فلا تكاد تجد آية إلا وهي تجمع بين الناحيتين ، حتى في الجزاء الأخروي ، الذي يعيبه البعض من المغرضين على الإسلام ، بزعم أنه

يتحدث عن الثواب والعقاب الماديين ، مع أنه مما يزين الإسلام وأهله أنه لا يهمل جانباً من جوانب الفطرة إلا ويعطيها حقها بطريقة متكاملة غير منفصلة عن باقي جوانبها .

والإسلام لهذا يحرم الغش والخداع والسحر والكهانة والشعوذة وتلبيس المسائل ، تضليلاً للناس ، وابتغاء الفساد في الأرض .

والآيات في ذلك كثيرة ، نكتفي منها - كما فعلنا من قبل - بأمثلة تدل على المراد .

يقول سبحانه وتعالى : **(واتَّبَعُوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفـــر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)** . سورة البقرة : ١٠٢ ، ويقول : **(وَدَّ الذين كفروا من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)** . سورة البقره : ١٠٩ ، ويقول : **(وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)** . سورة البقـرة : ٢٠٥ ، ويقول : **(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل)** . سورة النساء : ٤٤ ، ويقول : **(ولا تعثوا في الأرض مفسدين)** . سورة البقـرة : ٦٠ ، وسور أخرى ، ويقول : **(والله يعلم المفسد من المصلح)** . سورة البقرة : ٢٢٠ ، ويقول : **(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً)** . سورة القصص : ٨٣ ، ويقول : **(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله)** . سورة الحج : ٨ - ٩ ، ويقول : **(قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء)** . سورة آل عمران : ٩٩ . ويقول : **(الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا)** . سورة إبراهيم : ٣ ، ويقول : **(ولا يفلح الساحرون)** . سورة يونس : ٧٧ ، ويقول : **(إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)** . سورة طه : ٦٩ ، ويقول :

(كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثــال) . سورة الرعد : ١٧ .

ويمكن أن نستأنس هنا ببعض الأحاديث الشريفة ، يقول ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي : « إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في جوف البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير .

ويقول ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

القــاعدة الخامسة : الصدق وتجنب الجــدل

وللصدق في ميدان العلم خطره الذي لا يدانيه خطر ، خاصة في هذه الأيام التي ظهرت فيها علوم وأدوات ووسائل خاصة بالإعلام والاتصال الجماهيري ، وكيفية التأثير على الرأي العام وتكوينه وتوجيهه ، ولقد أصبح هذا العلم بفروعه المختلفة قادراً على تحطيم دول وإقامة أخرى ، وعلى إشعال الحروب وإخمادها ، ونشر مبادىء وتجميدها ، فإذا سيطرت عليه ووجهته نفوس خربة غير عامرة بالصدق ، فإن آثاره التي تحيق بالإنسانية تكون بعيدة المدى ، عميقة الضرر ، ومن هنا لم يكن الصدق مجرد مطابقة الخبر للواقع بل ينبغي – في هذا المجال – أن يجمع إلى ذلك مطابقة الحكم لمقتضى الحال ، بأن يكون العالم صادقاً – باديء ذي بدء – مع نفسه ، ومع واقعه وإنسانيته ، ومع مبادئه التي اختارها بملء حريته ، وما تمليه عليه من حــق وتجــرد .

فإن صدق العالم مع نفسه – كإنسان – ضروري حتى يكون بحثه وعلمه في نفع الإنسانية وتقدمها ، وفي بناء الحضارة وازدهارها ، وإذا كان هناك تعارض أو تناقض بين بحثه وبين أعماق نفسه ، فإنه يصبح ممزق

الشخصية ، محطم المعنويات ، وعندئذ لا يبالي خلال بحثه بما يتفق مع خير الإنسانية وسلامها ، وأمنها ورفاهيتها ، لأنه لا يشعر مع نفسه بالسلام والاطمئنان .

ومثل هذا الشعور يدفعه دائماً إلى المكابرة والجحود ، والمجادلة بالباطل ، مما يضيع الحق ويطمس معالمه ، ولا تكاد تجد عالماً صادقاً يميل إلى كثرة المراء والجدال ، كما أنك لا تكاد تجد كاذباً ينجو من رذيلة المماراة وتلبيس الحق بالباطل ، ولا شك أن ذلك لا يساعد على تقدم العلم وازدهاره ، فوق أنه يتسبب في تضليل الناس وحيرتهم ، وبذر عوامل الشك والريبة في نفوسهم ، ونزع أسباب الطمأنينة والاستقرار من بينهم .

ونؤكد مرة أُخرى على ذلك المارد الجديد ، من إنتاج العلم الحديث ، وهو علوم الإعلام ، التي تطورت في هذا العصر إلى درجة مذهلة ، بحيث يمكن أن تسيطر على ضمير الفرد ووجدانه لتشكله وتوجهه ، فإذا لم تلتزم بالصدق النابع من نفس صادقة أمينة كان خطرها داهماً وأثرها مدمراً .

ولست بحاجة إلى أن أُشير إلى أن الإسلام يعاني من تحيز وسائل الإعلام الغربية التي تسود العالم اليوم ، حيث لا تتحرى الصدق في المواد التي تقدمها ، على أننا لا نقصد بذلك أن ندافع عن فكرة معينة ، ولا مبدأ خاص ، لأن الأذى الذي يصيب الإنسانية من ذلك أعم من أن يصيب مبدأ هنا أو فكرة هناك ، إنه تخريب للنفوس ، وتشويه للضمائر ، وتزييف للمشاعر ، وتحطيم – في النهاية – للإنسان .

وينظر الإسلام إلى إنكار الحق ومكابرته والمماراة فيه على أنه كذب على الله ، وكذب على النفس ، وكذب على الناس ، ويحذر من ذلك أشد التحذير ، بل يحذر من المماراة حتى بالحق ، فما بالكم إذا كانت المماراة بالباطل .

يقول تعالى : **(انظر كيف كذبوا على أنفسهم)** . سورة الأنعام : ٢٤ ، ويقول : **(ويوم القيامـة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة)** .

سورة الزمر : ٦٠ ، ويقول : (**فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا**) . سورة الأعراف : ٣٧ وفي سور أخرى ، ويقول : (**إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون**) . سورة النحل : ١١٦ ، أما بالنسبة للجدال والمماراة فيقول جل ذكره : (**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم**) سورة الأنعام : ١٢١ ، ويقول : (**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**) سورة غافر : ٥ .

وقد روى الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة قول رسول الله ﷺ : « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، وتماروا به السفهاء ، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم ، فمن فعل ذلك فهو في النار » .

القاعدة السادسة : البيان والأداء

وهذا حق الإنسانية على العلماء ، فحين تتحقق كل هذه الأخلاقيات لدى العالم يصبح لزاماً عليه حقا أوّليّاً لله ، وحقاً بعد ذلك للناس أن يبين للناس ما علمه الله ، وأن يؤديه إليهم على وفق هذه القواعد الأخلاقية .

ذلك لأن العلم من الله وإليه مبدأ وغاية ، ومادة ووسيلة ، وكتمانه عن أهله ، وعمن يستفيدون به ، خيانة لهذا المبدأ ، وإهدار لهذه الغاية ، وتضييع لهذا الجهد ، وليس العالم بصاحب حق مستقل فيه ، لأن العلم والعلوم ليس خاصاً به وحده ، ولهذا (**أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**) . سورة آل عمران : ١٨٧ ، ونهى عن كتمان الحق وكتمان العلم في مثل قوله تعالى : (**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**) . سورة البقرة : ٤٢ ، ويوبخ من يفعل ذلك بقوله : (**لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**) . سورة آل عمران : ٧١ ، ويظهر لهم عظيم جرمهم ، وسوء عاقبتهم بمثل قوله تعالى : (**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**) . سورة البقرة : ١٧٤ .

ولو أن علماء العالم اليوم التزموا هذه القاعدة ، وجعلوا العلم — نظرياً وتطبيقياً — حقاً مشاعاً بين الأمم ، ولم يجعلوه احتكاراً لطائفة دون أخرى ، ولشعب دون شعب ، لما وقع العالم اليوم فريسة الجوع والفقر والمرض ، في حضارة الوفرة والبذخ وازدهار الطب ، ولما وقع فريسة الخوف والهلع والقلق في حضارة الذرة والإشعاع والكواكب والفضاء ، ولما وقع التمييز الهائل ، الذي تسبب في الأزمة بين ما يسمى بالشمال وما يسمى بالجنوب ، في حضارة الاتصال بالأقمار الصناعية ، واختصار الأزمان والمسافات في لحظات آنية ، ولما وقعت المجاعات التي تقتل بمخالبها وأنيابها مثلما تقتل الحروب المدمرة والأوبئة العاصفة في حضارة التبذل والإباحية ، والترف والإسراف ، واستنزاف موارد الأرض حية وجامدة ، وخيرات البحر حية وجامدة ، وفي هذا العام تحصد المجاعة آلاف الإفريقيين ، على مرأى ومسمع من حضارة العصر والمتحضرين .

لو أن هذه القاعدة الأخلاقية روعيت في النشاط العلمي لهذه الحضارة لأمكن أن يسود العالم روح من التعاون والإخاء والتكافل ، مهما اختلفت الآراء والاتجاهات ، ومهما اختلفت الأديان والألوان ، ولأمكن أن يعم السلام ربوع المعمورة كما أراد الله ، وكما دعا (**والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**) . سورة يونس : ٢٥ .

وبعد ، فإذا كانت هذه الأخلاقيات من أخلاقيات العلم في الإسلام بحكم الإطار الذي يحيط بها من المبدأ والغاية ، فإنها يمكن أن تكون دستوراً للعلم والعلماء من مختلف الملل والنحل بصرف النظر عن إطارها الإسلامي ، حتى يمكن أن تجد الحضارة الحديثة مخرجاً من أزمتها الراهنة ، وأن تتحول من ضيق الأثرة والمادية الخانقة ، إلى رحابة الروحية والإنسانية الفسيحة .